الأبحاث والدراسات 63

بلاد السراة في العصر الأموي

(دراسة لبعض مظاهر الحضارة) (*)

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة ضمن أعمال الندوة العالمية الرابعة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بجامعة الملك سعود، في الكتاب الرابع (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص ص ١٤٩ - ١٦٤ . كما نشرت في كتاب : دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١ - ق١٠ هـ / ق ٧ - ق ١٦ م)، لغيثان بن جريس، (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣١ - ١٤٣٢هـ / ٢٠١٠ - ٢٠١١م)، (الجزء الثاني)، ص ص ٩٩ – ١٣٢ .

بلاد السراة في العصر الأموي

(دراسة لبعض مظاهر الحضارة) (*)

إعداد

أ . د. غيثان بن علي بن جريس

(*) بحث قدم ضمن أعمال الندوة العالمية الرابعة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الجزيرة العربية في العصر الأموي (الأحد – الثلاثاء ٧-٩/١١/١٤٢٠هـ / ١٣-١٥/ نوفمبر / ٢٠٠٠م) ، بجامعة الملك سعود ـ كلية الآداب . وقد نشرت هذه الدراسة في الكتاب الرابع من دراسات الجزيرة العربية، والخاص بالعصر الأموي ، ص ١٤٩-١٦٤.

أولا : تمهيد :

يهدف هذا البحث إلى محاولة معرفة بعض الجوانب السياسية والحضارية لبلاد السراة [١] ، الممتدة من الحجاز شمالاً إلى اليمن جنوباً ، خلال العصر الأموي .

وقد أدت صعوبة تضاريس المنطقة (من جبال ، ووهاد ، وهضاب وعرة المسالك) إلى إحجام المؤلفين الأولين (من الجغرافيين والمؤرخين) عن سبر أغوارها والكتابة عنها وهذا من الأسباب التي جعلتني أخوض بقلمي مع صعوبة مهمتي في الحديث عنها . ويعد الحسن بن أحمد الهمداني الشخصية المعرفية في أرض السراة وسكانها ، لكثرة تنقله في أرجائها .[٢]

ولم يقتصر الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب على وصف الأماكن وتسميتها بأسمائها الجغرافية ، أو بأسماء القبائل أو العشائر القاطنة فيها ، وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث يذكر مواقع هذه القبائل أو العشائر في بعض المواطن من بوادٍ ونجود وسهول وأغوار ، متتبعاً أفخاذ هذه العشائر أو القبائل في الأماكن التي استقرت فيها ويمكن استعراض مظاهر الحضارة في بلاد السراة على النحو التالي .

ثانياً : التبعية الإدارية والسياسية لبلاد السراة خلال العصر الأموي :

رغم أن المصادر الإسلامية المبكرة شحيحة في معلوماتها عن الحياة الإدارية لبلاد السراة ، لكن من المؤكد أنها كانت تتبع إدارياً أمراء الدولة الإسلامية في الحجاز ، والذين كانوا يعينون على تلك الناحية من قبل خلفاء

المسلمين الأول . ففي العصر الأموي نجد الفاسي يذكر أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، في بداية خلافته ، عين أخاه عتبة بن أبي سفيان على مكة وما يتبعها من أرض السراة ونجران ، وعين أحمد بن خالد بن العاص على المدينة ، وقيل مروان بن الحكم ، وبعد ذلك عزل أخاه ، وأضاف ولاية مكة والطائف إلى مروان بن الحكم ، فأصبح بذلك والياً على الحجاز بكامله . ثم عزله عام (٤٩هـ /٦٦٩م) وولي سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ، وكان سعيد يقيم في المدينة وجعل ابنه عمراً نائباً عنه في مكة والطائف وما يتبعهما نحو الجنوب [٣] . وجمعت أيضاً لعمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) عام (٦٠ هـ/٦٧٩م) في عهد يزيد بن معاوية .

وعقب موت يزيد في (١٤) من ربيع الأول (٦٤هـ/٦٨٣م) [٤]. قوي أمر ابن الزبير في مكة وما يتبعهما من أرض السراة (يساعده الحارث بن حاطب الجمحي) ، وظل أمره كذلك حتى خلافة عبد الملك بن مروان .

عمل عبد الملك على استعادة الحجاز . فبعث قواته بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي تغلب على ابن الزبير ، في جمادى الأولى عام (٧٣هـ/٦٩٢م) ، وأخضع الحجاز واليمن لطاعة بني أمية ، ولذا فإن عبد الملك بن مروان ولاه عليها جميعاً [٥] ولم يسبق لها أن اجتمعت لوال قبله ، وعين الحجاج ولاة من قبله على تلك المناطق كنواب عنه يديرونها، وهو المرجع لهم ، كان منهم أخوه محمد بن يوسف الثقفي والياً على بلاد السروات الممتدة من الطائف حتى صنعاء .[٦] فلما انتقل الحجاج إلى العراق عام (٧٥هـ/٦٩٤م) والياً عليها عقب وفاة واليها بشر بن مروان ، أصبح

ولاة تلك المنطقة يراجعون مباشرة الخليفة عبد الملك بن مروان ، وكان منهم الحارث بن خالد بن العاص المخزومي ، والي مكة والطائف والسراة ، (وقد سبق له أن تولاهما في عهد يزيد بن معاوية) ، كما كان على المدينة يحيى بن الحكم بن أبي العاص ، عم الخليفة عبد الملك[٧]. واستمر محمد بن يوسف الثقفي - أخو الحجاج - والياً على اليمن وأصبح مرجعه المباشر هو الخليفة ، إلى أن توفي هذا الوالي عام (٩١هـ/٧٠٩م) بعد (١٨) عاماً من ولايته لها [٨] وتقلد ولاية مكة والطائف وما يتبعهما كثير من الولاة في عهد بني أمية ، وبالأخص في عهد عبد الملك بن مروان ، كما وليهما في عهد ابنه الوليد بن عبد الملك ، الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وأضيفت له المدينة المنورة فكان والياً على الحجاز بكامله ، واستمرت ولايته من عام (٨٦هـ/٧٠٥م) حتى عام (٩٣هـ/٧١١م) وقيل عام (٩١هـ /٧٠٩م)[٩] كما تولى ولاية مكة والطائف وما يتبعهما نحو الجنوب، أكثر من مرة ، خالد بن عبد الله القسري البجلي .

ونلحظ أن بعض الولاة جمعت له الولايات الثلاث : مكة والمدينة والطائف ، بما يتبعهم نحو الجنوب كجرش وبيشة ونجران مثل : عمر بن عبد العزيز كوال لها في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعبد الرحمن بن الضحاك القرشي عام (١٠٣هـ/٧٢١م) ، ثم الذي خلفه في ولايتها وهو : عبد الواحد بن عبد الله الثقفي وكان عبد الواحد قد ولي الطائف فقط عام (١٠٣هـ/٧٢١م) عقب عزل عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد ، ثم ضمت إليه الولايات الثلاث عام (١٠٤هـ/٧٢٢م) وأيضاً إبراهيم بن هشام بن

إسماعيل المخزومي ـ خال هشام بن عبد الملك ـ الذي وليها من عام (١٠٦هـ/٧٢٤م) حتى عام (١٢٥هـ/٧٤٢م) ، ويوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ـ ابن أخي الحجاج بن يوسف ، وخال الخليفة الوليد بن يزيد ـ حيث تولاها عام (١٢٦هـ/٧٤٣م) ، وفي الوقت نفسه كان أخوه مروان بن محمد بن يوسف الثقفي والياً على اليمن ، وجمعت أيضاً لعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان عام (١٢٩هـ/٧٤٦م)[١٠].

وكان يحصل أن تنفرد ولاية بوالٍ مستقل ، يتلقى تعليماته مباشرة من قبل الخليفة،من هؤلاء هشام بن أبي سفيان الثقفي ، الذي ولي أمر الطائف وما يتبعها نحو الجنوب دون ولاية مكة وذلك في عهد يزيد بن الوليد [١١].

ونلحظ من سياسة معاوية حرصه على اختيار الولاة من ذوي الحزم والحكمة في الاضطلاع بشؤون الرعية ، مع ميله إلى إسناد تلك المناصب إلى رجالات بني أمية ، أو من يلوذون في فلكهم ، فإذا رغب في أن يولي أحداً من بني أمية ولم يسبق له أن تقلد منصب ولاية ولاه ولاية محدودة تتسم بالهدوء والاستقرار ، مثل ولاية الطائف التي لا تردها وفود ، أو يطرق أرضها إلا عابر ، فإذا رأى منه خيراً وأعجب بحسن سيرته وإدارته أضاف إليه ولاية أخرى ، مثل ولاية مكة أو نقله إلى ولاية تستحق رعاية وسهراً دائماً ، لكثرة ما فيها من اضطراب ، كالبصرة والكوفة .[١٢] وهذا ما فعله مع أخيه عتبة بن أبي سفيان ، ففي بداية تقلده المناصب ولاه ولاية الطائف وحدها ، و بعد عدة أشهر أضاف إليه ولاية مكة وبلاد السراة الممتدة من

الطائف إلى نجران بعد أن لمس فيه حسن الإدارة ، وتصريف شؤون الولاية ، وكذلك مع مروان بن الحكم ، فقد ولاه المدينة أولاً ثم أضاف إليه مكة والطائف وما يتبعهما ، بعد عزل عتبة لمرضه ، وهذا في حد ذاته يعطينا مؤشراً على مدى اهتمام خلفاء بني أمية بتلك الولايات الثلاث وتوابعها ، وإسنادهم إياها إلى ذوي الكفاءة والمقدرة .

ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز عندما ولي خليفة عام (٩٩هـ/٧١٧م) عقب وفاة سليمان بن عبد الملك ، اختار ولاته من ذوي الورع والعلم وحسن الإدارة في سياسة الرعية ، فأبقى على عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، والي مكة والطائف وما يتبعهما في عهد سليمان بن عبد الملك ، وكان لعمر مشورة من قبل في تعيينه والياً على مكة من قبل سليمان ، كما عين على المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، وهو من فقهاء المدينة المشهورين.[١٣] ويأتي يزيد بن عبد الملك فيفصل ولاية الطائف وما يتبعها من بلاد السراة عن ولاية مكة ، ويولي عليها عبد الواحد بن عبد الله من ثقيف ، ويولي مكة والمدينة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري ، وذلك عام (١٠٣هـ/٢٢١م) [١٤]. لكن لم تلبث أن انضمت تلك الولايات الثلاث تحت والٍ واحد في عهد هشام بن عبد الملك وإلى نهاية عهد بني أمية في معظم الأحوال .

ثانياً : الحياة الاجتماعية :

أما الحياة الاجتماعية في بلاد السراة ، كما تخبرنا بعض المصادر الإسلامية المبكرة ، فقد بينت أن التركيبة السكانية في هذه البلاد تقوم على

القبيلة ، مشيرة إلى مواطن القبائل وفروعها في هذه البلاد ، فمثلاً ، قبائل الأزد بمختلف فروعها استوطنت البلاد الواقعة ما بين نجران وجازان إلى الطائف وتهائم مكة في الشمال ، وقد اختلط مع هذه القبائل ، قبائل عدنانية ، والاختلاط بين القبائل العدنانية والقحطانية في بلاد السراة قائم منذ أمد .[١٥] الأمر الذي أدى إلى اندماج العشائر النزارية مع القبائل الأزدية ، باعتبار الأولى أقل عدداً من القبائل الأزدية القحطانية ، فاندمجت بها أحياناً تحت ظروف القهر والغلبة ، أو الجوار والمصاهرة ، ويفهم من حديث الهمداني عندما قال : ((**ثم سراة زهران من الأزد، ودوس ، وغامد ، والحر، نجدها بنو سواءة بن عامر ، وغورها لهيب ، وعويل من الأزد وبنو عامر ، وبنو سواءة خليطي والدعوة عامرية**)) .[١٦] بأن الاختلاط والاندماج كان قائماً ، فبنو سواءة خليط من أفخاذ وعشائر سواءً كانت قحطانية أو عدنانية ، وأحياناً يكون خليط مجموعة من العشائر مندرجاً تحت مظلة واحدة أو اسم قبيلة أو عشيرة معينة .

وفي حديث بعض المصادر عن السراة ، لم تذكر وجود طبقة معينة من العبيد بها ، ولكن لا نستبعد أن يكون قد وجد بها نسبة منهم ، لأجل وقوعها في الوسط بين حواضر الحجاز واليمن الكبرى ، التي اشتهرت بنشاط أسواقها في بيع العبيد وشرائهم ، وغيرهم من السلع المختلفة ، إلى جانب أن أغوار بلاد السراة تطل على البحر الأحمر الذي يوجد به عدد من الموانئ التي كان لها صلات جيدة مع مصر والحبشة والسودان والصومال وغيرها من بلاد العالم .[١٧] أما طبقة الموالي في بلاد السراة فقد أوردها أحد

المصادر الإسلامية المبكرة صراحة عند حديثه عن جرش فقال : ((**وفي شق قرية جرش فرق من النزارية يدعون الجزارين من موالي قريش**)) .[١٨] ولعل جرش نالت هذا التخصيص بسبب كثرتهم ، الأمر الذي أدى إلى فرض وجودهم ، مع العلم أن النص الذي أورده هذا المصدر لا يوضح إلى من ينتسب إليه أولئك الموالي من قريش [١٩] . ولكن الأهم من ذلك أنه ربط مهنة الجزارة بالموالي دون سواهم ، لأن القبائل العربية تأنف أن تتخذ مثل هذه المهن وأشباهها ، وفي هذا يقول ابن خلدون في فصل خاص بمقدمته : ((**أن العرب أبعد الناس عن الصنائع**)) [٢٠] والملاحظ أن المهن إلى اليوم لها انعكاسات على أصحابها في بعض المجتمعات العربية .

وأثناء حديث المصادر الإسلامية الأولى عن مواطن السكان ومجاورتهم بعضهم بعضاً ، لم تذكر معلومات عن نوعية مساكنهم ومرافقها، ولم توضح كيف تبني بيوتهم، وكيف تصمم ، ونوع الأثاث الذي كان يوضع بها مع العلم أن بعض تلك المصادر ذكرت تفصيلات عن بناء البيوت ومرافقها في حواضر اليمن الكبرى ، فأشارت إلى سعة بعض الدور ، عند الأغنياء خاصة في صنعاء وغيرها من المدن الكبرى ، واستخدام الحجارة في البناء على هيئة طابقين ونادراً ما تكون أكثر من ذلك، وغيرها من المعلومات الجيدة حول البناء وما يتعلق به .[٢١] ونظراً للمجاورة بين بلاد السراة وحواضر اليمن فليس ببعيد أن يكون شكل بعض الأبنية والمواد المستخدمة في بنائها مثلما هو الحال في صنعاء وغيرها .

والطريف في روايات الرحالة الهمداني أنه لم ينس ذكر بعض الأماكن التي وجد بها بعض المراكز الحضارية ، فيذكر منطقة جرش قائلاً : **((ويسكنها بنو عبد الله بن عامر من عنز ، ثم تندحة ، وهي العين من أودية جرش ، وفيها أعناب وآبار وساكنه بنو أسامة من الأزد ، ورأيت بعضهم ينجذب إلى شهران العريضة ، والعيبا بلد مزارع لبني أبي عاصم من عنز، ويليها وادي طلعان كثير المزارع لبني أسد من عنز ، والقرعا لشيبة من عنز ولهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع يقال لها المسقي وهم مسالمون للعواسج))** .[٢٢]

وعلي نحو هذا العرض الذي تفرد به الهمداني لبعض أجزاء بلاد جرش ، نجده أيضاً يذكر أسماء بعضها ، وبقي أسماء بعض آخر إلى يومنا هذا ، وكل ما ورد ذكره فهو يغطي أجزاء من المناطق المعروفة حالياً بخميس مشيط ، وأحد رفيدة ، ومنتزه القرعا والجرة وما حولهما . ونراه ينوه بذكر شيبة من عنز في أرض القرعاء (الفرعاء حالياً)، وبين أن لهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع ، فهذا يدل على دقة ملاحظته ، فلم يكن يغفل عن حجم القرية التي كانت كبيرة ، وبها مسجد جامع للمصلين.[٢٣] عندما كان يعبر بلاد السراة في ذهابه وإيابه ما بين الحجاز واليمن . ولم يكن أيضاً يغفل عن ذكر بعض المراكز الحضارية ، وتجمعات المواطن السكنية بها . فيورد أسماء بعض القرى الهامة في جرش ، كتندحة ، وغيرها ، ثم يذهب إلى سراة بلاد الحجر ، فيذكر بها تنومة ، ثم يقول : **((وهي وادٍ فيه ستون قرية أسفله لبني يسار ، وأعلاه لبلحارث بن شهر))** .[٢٤] ثم يشير إلى مدينة

الجهوة التي تأتي في المرتبة الأولى قبل جرش ، ويواصل تدوين ملاحظاته الجيدة عن بعض القرى في سراة خثعم ، وبلقرن ، وشمران ، وغامد ، وزهران ، وبجيلة حتى مدينة الطائف ، والملاحظ أن الأماكن التي أشار إليها لم تبق على ما كانت عليه ، بل تغيرت في تقسيماتها ، وأحياناً في أسمائها ، فعلى سبيل المثال كانت في منطقة الجهوة في زمنه تأتي في المرتبة الأولى قبل جرش ، وهي من أرض بني شهر لسراة الحجر ، لكنها في الوقت الحاضر أصبحت جزءاً صغيراً من قرية بني بكر التابعة لمنطقة النماص.[٢٥]

أما الموائد والأطعمة التي حفظتها لنا بعض المصادر الأولية ، فكان جلها من الثريد، وهو عبارة عن خبز يفت ويبل بالمرق ، ويوضع فوق اللحم[٢٦] . ولعله يشبه ما يسمى ببلاد الشام (بالفتة) . والمضيرة ، وهي طبيخ اللحم باللبن حتى ينضج وتخثر المضيرة ، ثم تعد للأكل ، وموائد أخرى تتضمن الخبز ، والزبد ، واللبن ، والحليب ، واللحوم . وجميع هذه الأطعمة محلية لتوافر موادها في بلادهم ، فالقمح ، والذرة ، والشعير تزرع في السراة بكميات كبيرة . أما اللحوم والحليب ، فتؤخذ من مواشيهم الموجودة بكثرة حسب المراعي الشاسعة . وأشاد الهمداني بنوع من الأطعمة ، يسمى اللحوح (ولا يزال معروفاً في بلاد السراة إلى وقتنا الحاضر) ، وهو خبز رقيق يصنع من الذرة ، ويستخدم عادة مع اللبن ، وقد لا حظ رقته فوصفه بالقول : ((**إنه إذا وقع في اللبن استرخى فلا يحتمل إلا بأكثر الأصابع**)) .[٢٧] وأشار إلى أطعمة السفر الذي يتزود بها المسافر من اليمن إلى الحجاز، وربما تزود بها أهل السراة ، فقال : ((**وكنا نستعمل في**

أسفارنا الخبز والسمن واللحم والكشك والمهاد)) .[٢٨] وكان من أفضل المشروبات عند أهل السراة شراب اللبن مع الزبدة ، ومن أفضل المأكولات السمن الذي يستخرج من ألبان المواشي ، حيث كانوا يستخدمونه مع الخبز والعصيد والهريس [٢٩]. وهذا النوع من الطعام مازال مرغوباً وخاصة عند المسنين من أهل تهامة السراة .

وبالنسبة للعادات والتقاليد عند أهل السراة كالكرم ، والشجاعة فهو أمر معروف . وأما عن التكافل والتآزر ، سواءً في المواسم أو الأعياد أو المآتم أو غيرها من المناسبات ، فقد أشارت المصادر إلى ذلك باقتضاب شديد حينما تتحدث عن النواح (البكاء والعويل) أثناء المآتم بأرض السراة ومشابهته بنواح اليمن ، وتبين أن غالبية الذين يقومون به هم من النساء والعبيد الموالى.[٣٠]

رابعاً : الحياة الاقتصادية :

أما عن الحياة الاقتصادية في هذه البلاد التي حباها الله بعدة مزايا تؤهل ساكنيها على مزاولة العيش فيها ، فهناك المراعي ، والأراضي الزراعية الخصبة ، وهناك الموقع الجغرافي الهام ، كل هذا ساعد على امتهان الرعي ومزاولة الزراعة والتجارة ، والحرف اليدوية على مختلف أنواعها ، فالرعي عند أهل البادية من المهن الأساسية في الحياة ، يشاركهم فيها -أحيانا- أهل الحضر ، ونتيجة لكثرة المراعي وأهميتها في مقومات الحياة، فقد ذكرها الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب فقال : **((والصحن مراعي لبني شهر نجديها مما يصلي ببيشة))** .[٣١] ويبدو أن المناطق الشرقية من السراة تمتاز بكثرة مراعيها ، مما جعلها منطقة رعي عندهم إلى زمن قريب ، والأكثر من

هذا أننا نجد حواضر تزاول الرعي إلى جانب الزراعة، وهذا مما يعبر عنها عند علماء الاجتماع بنهاية مرحلة الانتقال وبداية مرحلة الاستقرار الدائم ، مع التنوع في أساليب العيش لتحسين الدخل.

ومن المواشي التي ورد ذكرها في بعض المصادر خلال القرون الإسلامية الأولى عند أهل السراة ، (وبقيت إلى زمن قريب) الماعز ، والضان ، يليها الإبل ، التي كانت تكثر في المراعي الشرقية للسراة لما يناسبها من اتساعها وتوافر أعشابها ، إلى جانب الأبقار والمطايا من الحمير وغيرها في البلاد السروية عامة ، وفي الأجزاء النجدية والتهامية معاً . وقد ذكر الهمداني أفخاذاً وعشائر في مناطق متعددة من بلاد السراة ، اقتصر عملهم على رعي الماشية ، وجمع الحطب ، وصيد الحيوانات البرية ، ومعظمهم من سكان المناطق الشرقية للسراة .[٣٢] ويبدو من كلامه أيضاً ، أن الزراعة كانت لها الأولوية بين المهن ، لكثرة المزارع والبساتين وما بهما من خضر وفاكهة ، ويعود ذلك لوفرة المياه من الآبار والأودية ، ونزول الأمطار في معظم أيام السنة بسبب هبوب الرياح الموسمية على اليمن وعلى بلاد السراة بشكل عام ، ومما يجدر ذكره بهذا الخصوص قوله: ((**وبسراة الحجر البر ، والشعير ، والبلس ، والعتر ، واللوبيا ، واللوز، والتفاح ، والخوخ ، والكمثرى ، والإجاص والعسل**)) .[٣٣] ويذكر ثانية سراة الحجر ، ثم نحيان واد مستقبل القبلة فيه التفاح واللوز والثمار،[٣٤] . ويذكر عدة أصناف من المحاصيل الزراعية التي اعتاد الفلاحون زراعتها ، في بلاد جنب ، وعنز ، وغامد ، وزهران ، وبجيلة ، وغيرها من المناطق الأخرى ،

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على صلاحية المنطقة للزراعة، لما تحويه من وفرة المياه ، وخصب التربة ، لكن مع الأسف لا نجد ذكراً لأساليب من الزراعة المستخدمة في المنطقة ، ولا كيفية بناء المدرجات الزراعية وحفر الآبار لاستخراج الماء من باطن الأرض ، رغم وجودها منذ زمن بعيد [٣٥] .

والملاحظ أن هذه المنطقة غنية بالأشجار والأعشاب البرية ، ومن هذه الأشجار : شجر الطرفاء ، والأثل ، والسلم ، والقرض والشبرم والشوحط ، والتالب ، والشث وغيرها. [٣٦]

أما الحرف والمهن اليدوية في بلاد السراة ، فلم تكن تهتم المصادر الإسلامية المبكرة بذكرها بشكل واضح ، وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك العديد من الحرف التي يتم مزاولتها لدى أهل البلاد ، والسبب الذي يجعلنا نجزم بوجود بعض منها ، هو أن المقومات الأساسية لبعض الحرف كانت متوافرة ، وأشار الهمداني إلى بعضها ، فمثلاً حرفة الدباغة كانت تحتاج إلى مناخ معتدل ، وإلى جلود المواشي ، وكذلك إلى بعض أوراق الأشجار المهمة في عملية الدباغة ، وكل هذه الأشياء في متناول أيدي أهل السراة[٣٧]. وقس على مهنة الدباغة مهناً أخرى ، كالخرازة ، والحدادة ، والخياطة ، والصياغة وغيرها من الحرف الكثيرة [٣٨]

ولم يغفل الهمداني عن ذكر الجانب التجاري في بلاد السراة أثناء تجواله في ديارها من الجنوب إلى الشمال بسبب امتهانه مهنة الجمالة ، حيث كان هو وصحبه ومن شاركهم في هذه المهنة يحملون أمتعة المسافرين والتجار على جمالهم ، لكنه مع الأسف لم يذكر لنا تقاليدهم المتبعة في هذه المهنة ،

من حيث الأجور ، هل تحسب بحساب الزمن ونوع الأمتعة ، أم بالمسافة وكمية الأمتعة ، كما أنه لم يشر إلى كيفية التعامل والتبادل التجاري الذي كان معمولاً به في المراكز التجارية ببلاد السراة ، ولا إلى الأعراف التجارية والعقود المبرمة بين أصحاب المهن والتجار ، في كل من حواضر اليمن والحجاز، كالطائف ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وصنعاء ، وصعدة ، وغيرها من الحواضر الأخرى ، حيث نشطت التجارة في هذه الحواضر ـ منذ أمد بعيد ـ حتى أصبح لها تراث تجاري زاخر في التقاليد والأعراف التجارية ، وهذا ما أشاد به الجغرافيون والرحالة المسلمون الأول ، وخاصة ممن كانت مؤلفاتهم في ذكر الأقاليم ، وما يوجد بها من خبرات ، وذكر المسافة فيما بينها [٣٩] . وخص أولئك الجغرافيون الطرق التجارية التي كانت تربط الحجاز باليمن مارة ببلاد السراة ، ابتداءَ من صنعاء وانتهاء بمكة المكرمة ، فذكروا الطريق الممتد من صنعاء ماراً بصعدة ، فجرش ، فبيشة حتى الطائف ثم مكة المكرمة ، والأكثر طرافة في الأمر أن الهمداني ذكر طول المسافة بين كل محطة وأخرى بالأميال ، وهذا يعكس لنا دقته في قياس طول الطريق أثناء ذهابه وإيابه منها [٤٠] . وذكر الطريق الساحلي الذي يربط الحجاز باليمن ماراً بالسهول الواقعة على الساحل بمحاذاة البحر الأحمر ، ذاكراً المراكز والمحطات التي يمر بها بعد مروره من اليمن ، ومن تلك المراكز، حلي ، وقنونا ، ودوقة ، والسرين ، والليث ، وغيرها حتى يصل مكة المكرمة ، وهناك طريق تجاري آخر يصل حضرموت بمكة المكرمة ، ويلتقي مع طريق صنعاء مكة المكرمة في محطة تبالة [٤١] .

خامساً : الحياة العلمية والفكرية :

كان الجو العلمي والفكري في السراة مناسباً لنمو البذور العلمية بسبب وضع السراة المميز ما بين اليمن والحجاز فلابد أن تنال قسطاً وافراً من العلم سواءً من علماء اليمن أو علماء الحجاز ، خاصة وأنها معبر لأهل اليمن أثناء توجههم لمكة والمدينة . والقارئ لكتب التراجم وغيرها من كتب الأولين ، ككتاب الطبقات لابن سعد ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ، والإصابة في تمييز الصحابة ، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ، كل هذه الكتب وغيرها يجد فيها القارئ معلومات قيمة عن علماء وفقهاء ، وشعراء وأرباب سيف وغيرهم ، عاشوا في حواضر هذين القطرين (اليمن والحجاز) وفي غيرهما من حواضر العالم الإسلامي ، كالكوفة ، والبصرة ، ودمشق ، وبغداد ، وغيرها ، وبعضهم كانوا بالمولد من أهل السراة ، وهم حجازيون ، أو يمنيون ، أو كوفيون ، أو دمشقيون بالاستقرار . ولكن مع الأسف لم نجد لهذه المنطقة (السراة) ذكراً واسعاً وصريحاً في مثل هذا المجال . ولعل السبب في ذلك يعود إلى اهتمام المؤرخين والمؤلفين بشكل عام بالمراكز الحضارية الشهيرة في العالم الإسلامي ، أكثر من اهتمامهم بالمناطق المغمورة ، والواقع أن منطقة السراة ظلت منسية ردحاً من الزمن .

ونجد بعض المصادر الأولية تدون لنا معلومات يسيرة استفدنا منها بعض الشيء في معرفة أحوال بلاد السراة من جميع الجوانب ، لكن على الرغم من أهميتها ، فإنها لم تفِ بالمطلوب في معرفة الحياة العلمية وأساليب

التعلم فيها ، وفي التعرف على الشعراء والأدباء والعلماء الذاهبين إلى بلاد الحجاز أو اليمن التي كانت أسعد حظاً من منطقة دراستنا . وسوف نستعرض بعض الشعراء من أبناء السراة خلال العصر الأموي .

١ـ **ابن الدمينة :** وهو عبد الله بن عبيد الله أحد بني عامر بن تيم الله [٤٢] . لم يعرف تاريخ ولادته ووفاته وإنما عاش ومات خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري متنقلاً في أرض الجزيرة العربية من بلاد السراة إلى صنعاء والشام وبغداد ، ومن أسماء الأماكن في السروات والتي وردت في قصائده وتدل على انتمائه إليها قوله في بيشة (ممتدحاً معن بن زائدة) [٤٣]

لولا رجاؤك لم أسر من بيشة عرض العراق بفتية ورواحل [٤٤]

وذكر في أبيات أخرى أسماء المواقع في بلاد قحطان وشهران والحجر ، كما ذكر أبياتاً كثيرة يفتخر بقومه خثعم ، فيقول :

وخثعم قومي ما من الناس معشر أعم ندى منهم وأنجى لخائف [٤٥]

٢ـ **أحمد بن يزيد بن عمرو القشيبي:** [٤٦] وهذا الشاعر ينتهي نسبه إلى حمير ، ثم يعرب بن قحطان ، وكان يسكن بصعدة مع صديقه الشاعر محمد بن إبان الخنفري [٤٧] . في عهد الدولة الأموية ، وكان صديقاً وحليفاً وصهراً له فقد تزوج من أخته الفارعة ابنة أبان .

ولما نشبت الحرب بين الربيعة والسعديين قام القشيبي مع ابن أبان في هذه الحرب وأفرى في السعديين وذلك على حد المصاهرة والحميرية كما يقول الهمداني إذ لم يكن للشاعر شأن بهذه الحرب .

ولما اصطلح الحيان وعادت بطون السعديين وأحس أنه قد أوجع القوم في حرب لم يكن طرفاً فيها خاف على عقبه من بني سعد بن سعد فارتحل إلى نجد وحالف بعض القبائل اليمنية كزبيد ونهد وجنب حتى يعتز بهم ويقوى ثم تقدم فنزل رياض تنادح (ببلاد شهران حالياً) في جمع من أهل بيته وخدمه وحواشيه ومن رغب الظعن معه من قومه [٤٨] .

ولما طال المكث به وتمادى في المقام اجتمعت إليه قبائل عنز (عسير) وكلمته في النزول بأرضها وأحميتها فسألهم المهلة حتى يعود رواده الذين بعثهم إلى نواحي الطائف وأنه لمرتحل ، ولكن عنز رأت ذلك مماطلة ومدافعة منه ، وألحت عليه في طلب الارتحال ، وكره سرعة الرحيل ، وجرت بينه وبين القوم مشادة وملاحاة حتى فزع كل فريق إلى سلاحه ، وبعث الشاعر الصريخ يستنجد بأحلافه زبيد وجنب ونهد وكان منهم حلال بالقرب منه فأنجدوه ، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً انهزمت بعده عنز بعد أن قتل جمع من أشرافها ورؤسائها . وبعدها ارتفع الشاعر من رياض تنادح إلى قرية جرش حتى يكون قريباً من أحلافه واستوطنها ولكن الحرب لم تنته بل ظلت مشتعلة بين الحيين . وكانت له أشعار ومناقضات مع محمد بن أبان في تلك الحرب وكان يبعث بها إليه في صعدة [٤٩].

ولم يحدد الهمداني الذي أورد أخباره مكان وفاته وزمانها ، ولم تذكر المصادر الأخرى شيئاً عنه وستظل وفاته مجهولة لنا إلى أن تكشف لنا كتب التراث هذا المجهول.

وشعر أحمد بن يزيد قوي الأسلوب فخم التعبير يمثل العصبية القبلية عامة والعصبية اليمنية خاصة . ولعلنا نلمس هذه الشدة في اللفظ والمعنى في

قصيدته التي بعث بها إلى محمد بن أبان يصور فيها بلاءه وبلاء أحلافه حيث يقول:

لقد لفلفت عنز علينا وأجلبت ودبت إلينا في كتائبها تسري
وساقت علينا من معد قبائلاً تبختر في الماذي في الحلق الخضر
فقالت معد ارحلوا من سيوفنا وخلوا بلاد الأكرمين ذوي الفخر
فسارت إلينا من زبيد عصابة وقالوا لنا بالجد منهم وبالنصر
وجاءت بنو نهد بن زيد بعارض من المزن وأني الرعد منبجس القطر
وأردف من يام وحي عدية فوارس ليسوا الميل في ساعة الكر
وغوري جنب في عرين حبيضة يرن عزيف الجن في شاهق وعر

ويمضي على هذا النحو إلى آخر القصيدة التي تبلغ أربعة وعشرين بيتاً ينتقل من معنى إلى معنى في قوة الفارس وصلابة المحارب [٥٠].

٣. **جعفر بن علبة بن ربيعة الحارثي:** ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان. ويكنى بأبي عارم وهو ابنه وفيه يقول عند مقتله.[٥١]

أوصيكم إن مت يوماً بعارم ليغني شيئاً أو يكون مكانيا

ولد هذا الشاعر ونشأ بنجران بلاد بني الحارث بن كعب ، وكان فارس قومه وشاعرهم ، كما كان أبوه شاعراً أيضاً . وكغيره من شعراء عصره لم نجد تحديداً لميلاده أو أخباراً عن نشأته الأولى . وكل ما نعرفه من أخبار هذا الشاعر تلك الحادثة التي أودت بحياته ، ولكنها حفظت لنا بعض

أخباره وهي حادثة قتله لأحد العقيليين ورفع أمره لوالي مكة ثم حبسه والقود منه بقتله . والتي اضطربت الروايات حولها واختلفت . ولعل أبا الفرج الأصفهاني خير من يعطينا صورة لهذا الاضطراب وذاك الاختلاف حيث يقول : **((وكان جعفر قتل رجلاً من بني عقيل : قيل : إنه قتله في شأن أمة كانا يزورانها فتغاير عليها . وقيل : بل في غارة أغارها عليهم . وقيل: بل كان يحدث نساءهم فنهوه فلم ينته، فرصدوه في طريقه إليهن فقاتلوه فقتل منهم رجلاً فاستعدوا عليه بالسلطان فأقاد منه))** .[٥٢]

ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فإن الشاعر قد رفع من نجران وحبس بمكة [٥٣] في القرن الثاني للهجرة ، وتردد الوالي في قتله لخؤولة أبي جعفر المنصور في بني الحارث بن كعب ، ولكن العقيليين أقاموا القسامة عليه وهددوا الوالي إن لم ينصفهم ليقدمن على الخليفة المنصور ، ويجيب الوالي بعد هذا التردد بقتله .

وكما اختلفت الروايات في تحديد أسباب الحادثة التي أدت إلى مقتل الشاعر اختلفت في تحديد زمان ومكان القود منه ، فبينما نجد أن أبا الفرج الأصفهاني يذكر أن الحادثة كانت في عهد أبي جعفر المنصور وأن الوالي على مكة كان السري بن عبد الله الهاشمي وأنه نسخ ذلك من كتاب عمرو بن أبي عمرو الشيباني بأثره عن أبيه [٥٤] إذ به ينقل عن ابن الكلبي أن الحادثة كانت في عهد إبراهيم بن هشام المخزومي ، ومن ثم فإن الرواية تقرر أنه قتل في عهد هشام بن عبد الملك بن مروان . وإذ به يعود وينسخ من كتاب للنضر بن حديد يقرر فيه أنه قتل في عهد المنصور وأن الوالي على مكة

كان السري بن عبد الله الهاشمي . وبعد نقل صاحب الأغاني لهذه الروايات نجد التبريزي في شرحه على حماسة أبي تمام يقرر وبدون تردد أن القتل كان على عهد الوالي إبراهيم بن هشام المخزومي [٥٥] .

ويبقى بعد ذلك أن نقف عاجزين عن تحديد السنة التي قتل فيها الشاعر ، فلم يذكر أحد ممن ترجموا له تحديداً لهذه السنة ، وقد حزن عليه أبوه حزناً شديداً بل نجران كلها بكت مقتله [٥٦] .

وقد وصف أبو الفرج جعفر بن علبة بأنه شاعر مقل غزل فارس مذكور في قومه . وهذه الصفات في الواقع تنطبق على الشاعر فأما كونه غزلاً فله أبيات في غاية الجودة وحادثة مقتله ربما أفصحت عن هذه الصفة ؛ وأما كونه فارساً مذكوراً في قومه فيظهر ذلك من خلال شعره وتبقى صفة القلة في شعره فهذا ما لا نستطيع أن نثبته أو ننفيه ، لا نستطيع أن ننفيه لأن ما بين أيدينا من شعره قليل ولا نستطيع أن نثبته لأن شعر أهل السراة وبلاد اليمن في هذه المدة قد أصيب بالإهمال وعدم التسجيل .

وعلى كل حال فإن شعر جعفر ـ كما يبدو لنا ـ ينقسم إلى قسمين : قسم غزلي وآخر حماسي . وقد تميز شعر الغزل برقة الألفاظ وسهولتها كما تلمس فيه حرارة العاطفة. ولعل ما يمثل هذه السمات قوله :

أشارت لنا بالكف وهي حزينة تودعنا إذ لم يودع سلامها

وما أنس مالأشياء ما أنس قولها وقد زل عن غر الثنايا لثامها

أما من فراقي اليوم بد ولا النوى بمجتمع إلا لشحط لمامها

أما شعر الحماسة ، فهو يمتاز بقوة الألفاظ ، وجزالة الأسلوب وجودة المعنى ، كما في قوله :

ولا يكشف الغماء إلا ابن جرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

نقاسمها أسيافنا شر قسمة ففينا غواشيها وفيهم صدورها (٥٧)

٤ . **العجير السلولي** (٥٨) : شاعر عاش في بلاد السراة خلال العصر الأموي ، وله قصة مع الخليفة هشام بن عبد الملك ، فتذكر المصادر الأولية أنه كان في بيشة مكان يسمى (المعمل) وهو عبارة عن قرية من أعمال مكة في أرض السراة لبني هاشم ، وكان أول أمر (المعمل) أنه كان بين سلول وخثعم ، فيحفر السلوليون به ويضعون فسيل النخل فيأتي الخثعميون وينتزعون الفسيل ويهدمون ما حفر السلوليون ، ثم يفعل الخثعميون مثلما يفعل السلوليون ، ولا يزال بينهم قتال وحروب دائمة حتى صار يطلق على ذلك المكان اسم " مطلوب " وعندما رأى ذلك العجير شاعر بني سلول تخوف أن يقع بين الناس شر أخطر من ذلك فأخذ من هذا المكان طيناً وماءً عذباً وذهب به إلى الشام ليعرضه على الخليفة هشام بن عبد الملك ، ويخبره ما يدور في ذلك المكان من حروب ونزاعات ، وعندما قابل الخليفة وأخبره ، قال هشام بن عبد الملك : كم بين الشمس وهذا الماء ؟ فقال : أبعد ما يكون بعده . قال : ما بين الطين ؟ قال : في الماء ثم أخبر العجير الخليفة بما في بيشة من أودية ومياه عذبة ، كما أخبره بجودة وخصوبة أرض بيشة ، فأرسل الخليفة إلى أمير مكة المكرمة وأمره أن يشتري مائتي زنجي ويجعل مع كل

رجل امرأته ثم يحملهم حتى يضعهم بمطلوب في بيشة للزراعة به ، فلما رأى الناس ذلك قالوا إن مطلوباً معمل يعمل فيه فذهب اسمه المعمل إلى يومنا الحالي.[٥٩] وقال العجير السلولي :

لا نوم للعين إلا وهي ساهرة حتى أصيب بغيظ أهل مطلوب

إن تشتموني فقد بركت أيكتكم زرق الدجاج وتجفاف اليعاقيب

قد كنت أخبرتكم أن سوف يعمرها بنو أمية وعداً غير مكذوب

سادساً : وخلاصة القول :

دراسة بلاد السراة وتبعيتها سياسياً وإدارياً في العصر الأموي، وأوضاعها الاجتماعية مثل : مواطن القبائل ، ونظام الموائد ، وطرق الطهي ، وأسماء الأطعمة، كما أشار البحث أيضاً إلى المراكز التجارية وأثرها الحضاري ، والازدهار الثقافي الناجم عن توسط السروات بن مركزين هامين: اليمن والحجاز . وما أشرنا إليه في هذه الدراسة، قد يفتح الآفاق لبعض الباحثين ، وبخاصة من أهل السراة أنفسهم، لأنهم أدرى بمواطنهم من غيرهم فيضيفون بالتحليل أو النقد أو التصحيح لكل ما تم إيراده . والشيء الذي يجب معرفته أن بلاد السراة وما جاورها لا زالت بحاجة إلى دراسات علمية أثرية جادة ، وذلك لا يتم إلاّ بتضافر الجهود بين الجهات الرسمية الحكومية ، والجامعات ، والمراكز البحثية ، بالإضافة إلى توفر الدعمين السياسي والإداري وكذلك المالي كي نصل إلى نتائج طيبة وإيجابية بإذن الله تعالى . والله من وراء القصد

سابعاً : الحواشي و التعليقات :

(١) السراة : لغة أعلى الشيء ، والسراة عند العرب تعني - أيضاً - الجبال المتقاودة ، الأخذ بعضها برقاب بعض ليس بينها فاصل تام ، والسراة هنا : هي السلسلة الجبلية الواقعة غرب بلاد العرب، أو الممتدة من اليمن جنوباً إلى الحجاز ثم الشام شمالاً ، وتخترق هذه السلسلة أودية و شعاب كثيرة يشرق بعضها ، وبعضها يغرب ، وهي ليست في مستوى واحد من حيث الاستواء ، فمنها الشامخ في العلو ، ومنها المنخفض ومنها المتوسط في الارتفاع . وقد أطلق بعض الجغرافيين القدامى على هذه السلسلة اسم (الطود) ونخص بهذه التسمية الجزء الجنوبي من جبال السراة، الذي يبتدئ بالطائف شمالاً وينتهي بنجران ثم صعدة وصنعاء جنوباً ، ويسمى الجزء الجنوبي الشرقي من هذه الجبال بـ (الجبل الأسود) ، ربما لأن صخوره بركانية سوداء ، كما يسمى بالسراة ، أو السروات ، وكل قسم فيه ينسب إلى القبيلة التي تسكنه، وقد يدعى سراة دون (أل) التعريف ، أما القسم الشمالي من السلسلة الممتدة من شمال مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وما يأتي بعدها فيسمى بحجاز المدينة أو السراة . أنظر : الحسن بن أحمد الهمداني ، الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير ، تحقيق محب الدين الخطيب (بيروت : دار المناهل ، ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م) ، ٢٥ وما بعدها ؛ ياقوت الحموي . معجم البلدان (بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ٢ :

٢١٨ : ٢٢٠ . جـ٣ ، ٢١٧، ٢٢٠ جرجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة : دار الهلال ، د. ت) ٢ : ٢٠٩ ، ٢١٠ صالح أحمد العلي ، " تحديد الحجاز عند المتقدمين"، مجلة العرب ، (١٣٨٨هـ/١٩٧٨م) ص١-٩ ؛ عبد الله الوهيبي ، " الحجاز كما حدده الجغرافيين العرب،"مجلة كلية الآداب ، الرياض (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ٥٣-٧٠.

(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٦٤ ؛ لمزيد من التفصيلات عن الهمداني ، انظر المقدمة التي كتبها حمد الجاسر في أوائل كتاب صفة جزيرة العرب ، وقاموس الأعلام ، لخير الدين الزركلي (بيروت ، ١٩٨٠م) ، ٢ : ١٧٩ .

(٣) انظر : تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحقيق لجنة من العلماء (بيروت : دار الكتب العلمية ، د. ت) ، ٢ : ١٦٦ ١٦٧ .

(٤) انظر عماد الدين إسماعيل بن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار (القاهرة: مطبعة الفجالة ، د . ت)، ٨: ٣٣٢ ، ٣٣٤ .

(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨ - ٣٥٧ ؛ ٩ : ٤٠٣ .

(٦) انظر ابن زبارة ، مختصر أنباء اليمن ، ص ٤١ ؛ ابن حزم، الجمهرة ، ٢٧٦. مات محمد بن يوسف في عهد أخيه الحجاج ، وهو والٍ على العراق ، ويوم أن جاءه نعيه كان ابنه محمد بن الحجاج قد توفي منذ ساعة ، فاسترجع الحجاج وقال : أمحمد ، ومحمد في يوم ؟! . وكان

عبد الملك قد ولي على المدينة طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان عقب مقتل عبد الله بن الزبير عام (٧٣هـ /٦٩٢م) ، ثم عزله عنها عام (٧٤هـ/٦٩٣م) وأضافها للحجاج خلال وجوده بالحجاز فجعل نائبه فيها عبد الله بن قيس بن مخرمة . انظر: الطبري، تاريخ ، ٦ : ١٩٢ ، ٢٠١ .

(٧) لمزيد من المعلومات انظر: الطبري ، تاريخ، ٦ : ٢٠٢ ، ابن حزم ، الجمهرة ، ٨٧ ؛ الفاسي ، شفاء الغرام ، ٢ : ١٧٠ .

(٨) الطبري ، تاريخ ، ٦ : ٤٩٨ ، ابن الزبارة ، مختصر ، ٤١ .

(٩) الطبري ، تاريخ ، ٦:٤٢٦ ، ٤٨١، ٤٦٤ ؛ الفاسي ، شفاء الغرام، ٢ : ١٧٤ ؛ ابن حزم، الجمهرة، ٢٤٦، ٤٦٤ ، ٤٨١ .

(١٠) الطبري ٦ : ٤٤٧ ٦٢٠ ؛ ٧: ١٤ ، ٢٠ ، ٢٩ ، ٩١ ، ٢٢٦ ؛ الفاسي ، شفاء الغرام ، ٢ : ١٧٢ ١٧٤ ؛ ابن حزم ، الجمهرة ، ١٤٨ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ .

(١١) ابن حزم ، الجمهرة ، ٢٦٨ .

(١٢) الطبري ، تاريخ ، ٥ : ٢٩٦ .

(١٣) الطبري ، تاريخ ، ٦ : ٥٥٧ ، ٥٥٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٩ : ٢٠٧ .

(١٤) الطبري ، تاريخ ، ٦ : ٦٢٠ ؛ الفاسي ، شفاء الغرام ، ٢ : ١٧٤ .

(١٥) لمزيد من التوضيحات عن القبائل القحطانية (الأزدية) والعدنانية في بلاد تهامة والسراة ، انظر : هشام بن محمد الكلبي ، جمهرة النسب الكبير ، رواية السكري عن ابن حبيب ، تحقيق ناجي حسن

(بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٧هـ /١٩٨١م) ؛ ابن حزم، الجمهرة ، ١٨ وما بعدها ؛ عمرو بن غرامة العمروي ، قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام (أبها : نادي أبها الأدبي ، ١٤١١هـ /١٩٩١م) ، ١ : ٥٧ وما بعدها .

(١٦) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ١١٩ ١٢٠ .

(١٧) النشاط التجاري خلال العصور الوسطى كان جيداً ، وبخاصة في مكة المكرمة ، والمدينة المنورة بالحجاز ، وصنعاء وصعدة وغيرهما من مدن اليمن الكبرى ، إلى جانب وجود طرق تجارية ، برية وبحرية نشيطة تربط تلك الحواضر مع أجزاء عديدة في العالم الإسلامي آنذاك . ولمزيد من التفصيل انظر في المصادر والمراجع التالي ذكرها . شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق إم دي غودي (ليدن : أبريل ، ١٩٧٦م) ، ٧٩ ، ٩٧ ؛ محمد بن أحمد بن جبير ، رحلة ابن جبير (بيروت : د.ت .) ، ٩٦ وما بعدها ؛ ناصر الدين خسرو المروزي ، رحلة ناصرخسرو ، ترجمة وتقديم أحمد خالد البدلي . (الرياض : عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١٢١ وما بعدها ؛ غيثان علي جريس " الطرق التجارية البرية والبحرية المؤدية إلى الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة ، " مجلة العرب ، ٢٦ ، ع ع ٧ ، ٨ (١٤١٢هـ) ، ٤٤٧ ٤٦١ .

(١٨) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص٢٥٥ ٢٥٦ .

(١٩) كان العرب في صدر الإسلام ولاسيما في العهد الأموي يسمون غير العرب من المسلمين بالموالي . وكان المسلمون في البلاد العربية ، كالعراق ، والشام ، والحجاز ، وغيرها ، قد ألفوا عادة الانتماء بالولاء إلى من يريدون من الشخصيات العربية المرموقة والانتساب إلى قبائلها اسمياً ، وإن لم يكونوا منها فيكتسبون بذلك بعض حقوق القرابة بالنسب ، كالمساعدة ، والحماية ، والتأييد . ومن الموالي أيضاً من كان في منزلة الرق ثم أعتقوا من قبل ساداتهم فصاروا في مكانة أخرى بين الرق والحرية هي منزلة الولاء أو الموالي . لمزيد من التفصيل عن الولاء انظر . محمد بن منظور، لسان العرب ، نسقه وعلق عليه علي شيري (بيروت : در إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) ، ١٥ : ٤٠١ ٤٠٦ .

(٢٠) عبد الرحمن محمد بن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (بيروت : دار العلم للجميع ، د . ت) ، ١ : ٣١٨ وما بعدها .

(٢١) انظر تفصيلات أكثر : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٣٤٤ وما بعدها ؛ ولمزيد من التوضيحات عن الحياة الاجتماعية في حواضر اليمن، وبخاصة في صنعاء وما حولها، انظر: المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ٨٤ وما بعدها ؛ أحمد بن عمر بن رسته ، كتاب الأعلاق النفيسة ، تحقيق ، إم دي غوي (ليدان : بريل ، ١٩٨١م)، ١٠٩ ١١٥ ؛ كما انظر : غيثان بن علي بن جريس ، عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية

(١١١٠ ١٤٠٠هـ /١٦٨٨ ١٩٨٠م) (جدة : دار البلاد ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ، وما بعدها .

(٢٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٥٧ .

(٢٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٦١ .

(٢٥) لمزيد من المعلومات عن الحياة التجارية في اليمن والحجاز وعلاقة تلك الأجزاء ببلاد السراة ، انظر . ابن جبير ، الرحلة ، ١٠٠ وما بعدها ؛ ابن جريس " الطرق التجارية " ٤٤٧ وما بعدها ؛ أحمد عمر الزيلعي ؛ مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١ ٤٧٨هـ (الرياض : عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض، ١٩٨١م)، ١٥٥ وما بعدها .

(٢٦) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٣٤٠ ، ٣٥٦ .

(٢٧) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٣٤٠ .

(٢٨) الهمداني ، صفة جزيرة العرب، ٣٥٦ ، والمهاد ، هو الخبز الممهود . والكشك يتخذ من نقع البرغل بعد اختماره فيفت ويطبخ، الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٣٥٦، ملاحظة (٢) .

(٢٩) الهمداني، صفة جزيرة العرب ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٣٠) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٣٦٥ . وقد أخبرني بعض المختصين في تاريخ المغرب والأندلس ، فذكر أن مثل هذه العادة كانت ولازالت عند بعض المغاربة، وبخاصة في المغرب الأقصى .

(٣١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٦٢ .

(٣٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٦٢ ، ٣٠٢ .

(٣٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٦٢ .

(٣٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٦١ .

(٣٥) من يلاحظ الآبار والمدرجات الزراعية ببلاد السراة ، في يومنا هذا يلاحظ الجهد الكبير الذي بذل في بناء مدرجات عالية الارتفاع، لكي تحافظ على تربة المزرعة ، وكذلك آبار بعيدة العمق ، والتي بعضها حفرت في صخور صماء ، وبأدوات يدوية قديمة . حبذا لو خرج أحد أبناء السراة بدراسة علمية جادة تتبع فيها متى وكيف عملت تلك المدرجات الزراعية ، التي نلاحظها في طول وعرض البلاد ، وكذلك تلك الآبار الكثيرة والتي يظهر على بعضها قدم العهد .

(٣٦) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٢٦ ، ٣٠١ . ولم يكن رحالة اليمن الهمداني هو الوحيد الذي انفرد بذكر ما في السراة من أشجار برية متنوعة ، بل سبقه في ذلك أبو حنيفة الدينوري ، ومن يطالع كتابه (النبات) يجد أنه لا يكتفي بذكر أسماء الأشجار ، بل يشير إلى وصفها من حيث شكلها ، والمناطق الملائمة لها ، وأين تكثر وأين تقل ، والأغراض المستخدمة من أجلها ، سواءً كان في التجارة أو في الدباغة ، أو الصباغة أو غيرها . ويعتبر الدينوري من أفضل من كتب عن النباتات وبخاصة في بلاد السراة من بلاد الجزيرة العربية ، ومن كتبه التي وصلتنا عن النباتات ما يلي : كتاب النبات ، الجزءان الأول والثاني ، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة : المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٧٣ م) ، الجزء الثالث ،

النصف الأول من الجزء الخامس، شرح وتحقيق المستشرق برنهارد لفين ، بألمانيا عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م . وقد جاء بعد الدينوري والهمداني بعض الجغرافيين واللغويين فذكروا أسماء عديدة للأشجار والنباتات الموجودة ببلاد السراة ، ومن أولئك العلماء على سبيل المثال لا الحصر ، عرام بن الإصبغ السلمي ، في كتابه أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه، والبكري في كتابه معجم ما استعجم ، وياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان، وفي بعض المعاجم اللغوية، كالقاموس المحيط للفيروز أبادي ، ولسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للزبيدي .

(٣٧) لمزيد من التفصيلات عن مهنة الدباغة، كيفيتها، وأساليب مزاولتها، والمواد الأساسية في ممارستها ، انظر :"باب الدباغ " المذكور في كتاب النبات للدينوري ، تحقيق المستشرق برنهارد لفين ، ١٠٤ ـ ١٢١ ، أيضاً انظر : كتاب المخصص لابن سيدة (القاهرة : مطبعة بولاق ، ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) ، ٤ : ١٠٤ـ ١١٦.

(٣٨) ولمعرفة بعض التوضيحات عن المهن والحرف بشكل عام خلال القرون الإسلامية الأولى ، وبخاصة في المناطق المجاورة لبلاد السراة كحواضر الحجاز واليمن ، انظر : عبد العزيز إبراهيم العمري ، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم (الدوحة : مركز التراث الشعبي ، ١٩٨٥م) ، ٤٧ وما بعدها ، عبد الله محمد السيف ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد

والحجاز في العصر الأموي (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ، ١٥١ ١٦٨ ؛ جميل حرب محمود ، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي (جدة : دار تهامة للنشر ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ؛ غيثان بن علي بن جريس ، " أهم الحرف والصناعات في الحجاز خلال القرون الإسلامية المبكرة ، " مجلة المنهل ، ٥٣ ، ع ٤٩٢ (١٤١٢هـ) ، ٨٢ـ٩٦ .

(٣٩) لمزيد من التفصيل عن النشاط التجاري في حواضر اليمن والحجاز خلال العصر الإسلامي الوسيط. انظر، المقدسي، أحسن التقاسيم ، ٨٤ وما بعدها ؛ ابن جبير، الرحلة، ٩٦ وما بعدها ؛ الزيلعي ؛ مكة وعلاقاتها الخارجية، ١٥٥ ومابعدها ؛ حرب، الحجاز واليمن ١١٧، ١٥٩ Hassan ."The Arabian Commercial Background, " Islamic Culture .46.No 2(April 1987). 70 .83 Patrica Crone. Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford : Basil Blackwell,1987) .

(٤٠) حول شرح الهمداني لأطوال تلك الطريق التي تربط بين صنعاء والطائف مروراً بالسراة ، انظر : صفة جزيرة العرب ، ٣٣٨ـ ٣٤٠ لم يكن الهمداني هو الوحيد الذي ذكر تلك الطريق ، وإنما البعض من الجغرافيين الأوائل أشاروا إليها أيضاً مثل : اليعقوبي ، البلدان ، ٣١٤ وما بعدهما ؛ ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، تحقيق إم . دي غوي (ليدن : بريل ، ١٣٠٦هـ / ١٨٩٩م) ، وما بعدها . وضمن هذا الكتاب ، كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، الذي أشار أيضاً إلى ما أشار إليه اليعقوبي وابن خرداذبة ، ١٩١ وما بعدها ، انظر أيضاً : الإمام أبو إسحاق

الحربي ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق حمد الجاسر (الرياض : منشورات دار اليمامة ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ، ٦٤٣ ٦٤٩ .

(٤١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٣٤١ـ ٣٤٣ .

(٤٢) لمزيد من التفصيلات انظر : ديوان ابن الدمينة ، جمع وتحقيق أحمد راتب النفاخ ، تقديم ومراجعة محمود محمد شاكر (القاهرة : دار العروبة ، ١٣٧٨هـ) ، ١٤ وما بعدها . أيضاً انظر : عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الشعر والشعراء (بيروت : دار إحياء العلوم ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ، ٤٩٢ ـ ٤٩٣ ؛ للمزيد أيضاً انظر : " أخبار ابن الدمينة ونسبه ، " كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ط٢ (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ، ١٧ : ٩٨ ـ ١١٢.

(٤٣) معن بن زائدة الشيباني من رجال الدولة الأموية والعباسية ومن أجود العرب ، ومن القادة المذكورين بالبأس والنجدة ، وكان فارساً شجاعاً ؛ انظر : الطبري ، تاريخ ، ٧: ٥٠٥ ، ٥٠٨ .

(٤٤) ديوان ابن الدمينة ، ٣٥ .

(٤٥) ديوان ابن الدمينة ، ٣٧ ، وله أشعار عديدة في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ٤٩٢ وما بعدها ؛ وكذلك في كتاب الأغاني ، ١٧ : ٩٨ وما بعدها .

(٤٦) للمزيد عن أخبار هذا الشاعر انظر : الحسن بن أحمد الهمداني ، الإكليل (القاهرة : مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٦٦م) ،

٢ : ١٢٨ ، ١٦٣ ١٦٦ ؛ أحمد بن محمد الشامي . قصة الأدب في اليمن (بيروت : منشورات المكتب التجاري للطباعة ، ١٩٦٥م) ، ٢٥٧ ـ ٢٦٣ .

(٤٧) ولد الشاعر محمد بن أبان الخنفري بصعده في خلافة الخليفة معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) سنة خمسين للهجرة ، ونشأ بها ، يعود نسبه إلى يعرب بن قحطان . لمزيد انظر : الشامي ، قصة الأدب في اليمن ، ٢٥٧ وما بعدها .

(٤٨) انظر : الهمداني ، الإكليل ٢ : ١٢٨ ، ١٦٣ وما بعدها ؛ الشامي ، قصة الأدب ، ٢٥٨ وما بعدها.

(٤٩) انظر : الهمداني ، الإكليل ، ٢ : ١٢٨ ، ١٦٣ وما بعدها ؛ الشامي ، قصة الأدب ، ٢٥٨ وما بعدها .

(٥٠) الهمداني ، الإكليل ، ٢ : ١٦٥ وما بعدها ؛ الشامي ، قصة الأدب ، ٢٦١ وما بعدها .

(٥١) لمزيد من التفصيلات عن هذا الشاعر انظر : أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني (بيروت : مؤسسة جمال للطباعة ، عن طبعة دار الكتب المصرية ، د ت) ، ١٣ : ٤٥ " جعفر بن علبة الحارثي" : "حياته وما تبقى من شعره " ، جمع وتحقيق ودراسة شوادفي أحمد علام ، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة (جامعة الأزهر) (١٤١٣هـ /١٩٩٣م) ، ٣٤١ ـ ٤٢٩ .

(٥٢) الأصفهاني ، الأغاني ، ١٣ : ٤٩ وما بعدها ؛ علام " جعفر بن علبة الحارثي " ، ٣٤٦ وما بعدها ،

(٥٣) الأصفهاني ، الأغاني ، ١٣ : ٤٩ وما بعدها ؛ علام " جعفر بن علبة الحارثي ، ٣٤٦ وما بعدها .

(٥٤) الأصفهاني ، الأغاني ، ١٣ : ٤٩ وما بعدها علام " جعفر بن علبة الحارثي " ٣٤٦ وما بعدها . وانظر : " كتاب أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام ، لمحمد بن حبيب ، ضمن نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة ١٣٧٣هـ /١٩٥٤م) ، ٢ : ٢٠٧ ،

(٥٥) انظر : شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي (بيروت : عالم الكتب ، د ت .) ، ١ : ٤٦ ؛ كما انظر : علام ، " جعفر بن علبة الحارثي " ، ٣٥٢ وما بعدها .

(٥٦) الأصفهاني، الأغاني ، ١٣ : ٤٦ ؛ علام " جعفر بن علبة الحارثي ، ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

(٥٧) علام ، " جعفر بن علبة الحارثي " ، ٤١٨ .

(٥٨) لمزيد من التفصيلات عن الشاعر العجير السلولي ، انظر : محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، قراءة وشرح محمود محمد شاكر (القاهره : مطبعة المدني ، د ت) ، ٢ : ٥٨٣ ، ٥٩٣ ، ٦١٥ ، ٦٢٥ . وهناك روايات تقول : إن العجير السلولي عاش في عصر الخليفة عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك لمزيد من التفصيلات عن أخبار هذا الشاعر ونسبه ، انظر : الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، ١٣ : ٦٤ ـ ٨٤ .

(٥٩) الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، ١٣ : ٧٤ وما بعدها .